الموضوع:

عُينت أختك معلّمة بإحدى المدارس الرّيفية فوصفت لك طبيعة الحياة هناك، وما يلقاه أهل الرّيف من عناء.

صِف المشهد على لسان الرّاوية وما أثاره في نفسك من مشاعر.

التحرير

المقدّمة

أبدع الفنّانون في وصف الرّيف ونَقاء وطِيب وعذُوبة العيش فيه، وقالوا وأطالوا حتّى رَسخت له في أذهان النّاس صُورةٌ مثاليّة تَتُوقُ إليها الأفئدةُ وتطمح إليها النّفوس ويتمنّى كلّ إنسان أن يَهرب من المدينة وضوضائها وكثرة مشاغلها إلى الرّيف وهوائه وبساطة الحياة فيه وجماله. لكنّي فُوجئت بحديث أختي المعلّمة بإحدى المدارس الرّيفيّة يوم عادت إلى البيت بمناسبة العطلة المدرسيّة. فهدَّمت تلك الصُّورة الجميلة الرّاسخة في ذهني عبر ما حفظته من أشعار وما طالعته من نصوص تتغنّى بالرّيف وطيب العيش فيها بما نقلته من شهادة عن صُعوبة العيش هناك وما يُكابده أهل الرّيف فيه من بؤس ومعاناة.

الجوهر

جاءتنا فقالت:" كشفت لي إقامتي بالرّيف بعيدة عن المدينة وطرقها وأزقّتها وبناءاتها المتاكثفة الضيّقة عن عالم جديد رحب تناثرت بيوته هنا وهناك كتناثر أوراق الخريف ، لا يملك أهله إلاّ مدرسة أقيمت عند قمّة تلّة تدركها

الأبصار من كلّ جهة ويؤمّها أطفال المنطقة من كلّ حدب وصوب ، ولبلوغها على أغلبهم أن يقطعوا مسافات طويلة ينزلون خلالها أودية ويتسلّقون هضابا ويشقُّون سهولا وينفقون في ذلك وقتا طويلا وجهدا كبيرا ولا يبلغونها إلاّ وقد أنهكهم التّعب وكدّهم الجهد ، فأتساءل: ماذا بقي لهم من الوقت والعزم لإنجاز الدّرس ؟

وتلاميذنا ليسوا من ميسوري الحال يبدو ذلك من هيئاتهم فملابسهم قلّما تقيهم برد الشّتاء، فبعضهم فقط يفوز منهم بمعطف صوفيّ يدفئ عظامه أو بحذاء جلديّ يحمي قدميه من طوب الأرض القاسية وأشواكها النّاتئة متسلّحين فقط بلمجة بسيطة تدفع عنهم ألم الجوع، وإذا كانت أدواتهم الحياتيّة بسيطة محدودة فما عسى أن تكون أدواتهم المدرسيّة غير قلم جاف وكرّاس صغير الحجم وكتاب مستعمل ومحفظة قديمة.

وتلاميذ مدرستنا عرضة لهجمات الكلاب السّائبة أو بعض الثّعالب والخنازير البريّة المنحدرة من الغابة المجاورة عزاؤهم الوحيد أن يسيروا في مجموعات حتّى يأمنوا شرّ الطّريق وإذا اتّفق أن تأخّر أحدهم عن رفاقه فما عليه إلاّ أن يغامر فيقطع المسافة منفردا أو أن يبقى بالبيت دون تعلُّم، الدّرس في هذه الرّبوع ثمين وغالٍ.

ويمثل الطّريق في الرّيف شريان الحياة باعتباره صلة الوصل بين البيوت المتناثرة والقرية المجاورة حيث المستوصف والبريد وديوان الإرشاد الفلاحيّ ، لكنّ هذه الطّرق على قلّتها مهملة غير مصانة وهي عبارة عن

مسالك ريفيّة تتخلّل الحقول تكاد تسمح بمرور دابّة أو عربة صغيرة فإذا هطل المطر وامتلأت الجداول وسالت الأنهار وانقطعت عليها الحركة فلا جسور تعلو النّهر لتصل طرفي الطريق ، وقد يصيب بعضها انزلاق أرضيّ يعطّل مصالح الفلاّحين فيبحثون عن مسالك أخرى تزيد على جهدهم جهدا وعلى عذابهم عذابا ، فقد أخذ المخاض ذات ليلة من ليالي الشّتاء إحدى الرّيفيّات وقد غمرت مياه الأمطار الطّرقات والمسالك ما حال دونها ومستوصف القرية، وقد كانت ولادتها صعبة فولّدتها إحدى نساء الرّيف الخبيرات، لكنّها ضحّت بالمولود لإنقاذ الأمّ.

حياة أهل الرّيف طوال السّنة صراع دائم محموم مع الطّبيعة ومواجهة لا تهدأ بوسائل بسيطة وإمكانيات محدودة، ففي الشّتاء يواجهون الأنواء والعواصف والبرد القارس بعزم لا يكلّ وجهد لا يفلّ، يحرثون ويزرعون

ويرعون أبقارهم وأغنامهم يجوبون الحقول طولا وعرضا لتنقيتها من الأعشاب الطّفيليّة التي تهدّد صابتهم ومصدر رزقهم، يخرج الرّعاة منهم فجرا قبل أن يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود يسوقون إلى المراعي قطعانهم حيث يقضي الواحد منهم كامل يومه يحرسها بعين حالمة ونفس آملة أن تنمو وتدرّ عليه خيرا.

وعندما يحلّ فصل الصيّف وتطلع الشّمس الحارقة بأشعّتها الوهّاجة وتهبّ ريح السّموم تلفح الوجوه، يخرج الفلاّحون يتحدّون قسوتها إلى حقولهم يجمعون صابتهم وقد تمايلت سنابل القمح صفراء ذهبيّة تدعو للحصاد،

يخرجون شيبا وشبابا، رجالا ونساء وأطفالا يلتقطون كلّ سنبلة خلّفها الحاصدون أو أسقطوها وكلّ حبّة تجاهلوها أو نسوها.

الحياة في الرّيف جهاد في زمن الحرّ والقرّ والجدب والصّابة، ففي سنوات الجدب تَشحُّ السّماء فيعطش الإنسان والحيوان والنّبات ويشقى الفلاّح لرؤية أرضه تعطش وأديمها يتشقّق متلهّفة للماء ترتوي به لتجود خيرا ونعما، وإذا كان الإنتاج وفيرا والصّابة جمّة وجد الفلاّح هناك مشكلة في تخزين منتوجه أو بيعه في الأسواق بأسعار مناسبة تعوّض له مصاريفه وجهده، فيبتزُّه السّماسرة ويدفعونه إلى بيعها بأسعار منخفضة ثمّ

يخزّنونها ليبيعوها في الوقت المناسب بأسعار مرتفعة، فالفلاّح في زمن الجدب مأزوم ووقت الرّخاء محروم.

الخاتمة

استوعبت مليا حديث أختي وتأملت جليا في قولها فأكبرت في تلاميذ الريف النّجاح رغم قسوة المعيشة وصعوبة الظّروف وقلّة الإمكانيات وأدركتُ ما لهذه الفئة المُهمَّشة من فضل على سائر فئات المجتمع فهي تُكابد أعتَى الصّعاب لتوفّر لنا لذيذ الخيرات فلولا تلك الأيادي الخشِنة التي حرثت وزرعت وسَقت ورَعت، لمّا تمتّعنا بما نتمتّع به من خضر طازجة وغلال شهيّة ولحوم طريّة، ومع ذلك نجد من يتعالى عليهم بكبرياء زائف وجُحود ناكرٍ وما كان علينا إلاّ أن نُقبّل تلك الأيادي المُشقّقة والجِباه العالية.